٢ أيها المصرى من أنت؟

أنا الذى إذا أعطيتنى قلبك وثقتك وأحترامك رأيت منى عجبًا..

٦ أكتوبر ١٩٧٣

كل شىء هادىء على جبهة قناة السويس.

المصريون فى أماكن حراستهم على الضفة الغربية للقناة. الدوريات تروح وتجىء فى صمت وسكون. بعض الضباط يمسكون بمناظيرهم المكبرة ويجولون بأبصارهم خلالها. كلٌ فى المنطقة المقررة له. فلا يرون شيئا غير الذى اعتادوه منذ وقوف حرب الاستنزاف. الإسرائيليون هناك على الضفة الشرقية يقومون بأعمال الحراسة والدوريات فى تكاسل ظاهر.

إنهم واثقون من قوتهم وسلاحهم. مدافعهم مصوبة إلى أهدافها على الضفة المصرية. إلى جانب كل مدفع رجال يؤدونه يتأكدون من أن ماسورتها على الأهمة المقابل أى حركة يشكون فيها على الجانب المصرى. وراءهم يرتفع ساتر ترابى كأنه جبل. ومن خلفه مواقع حفظ ذخائرهم وأغذيتهم وقطع غيارهم. الجنود والضباط يتزحلقون ويدحرجون. عربات الجيب تروح وتجىء. بعض الجنود الإسرائيليين من غير رجال الدورية يستحمون فى مياه القناة. بعضهم يقرأ كتبا وأغلبهم مذلاة فى الماء.

آخر ما كان يخطر ببالهم أن يقوم المصريون بأى شىء. من هذه الناحية كان الإسرائيليون واثقين اثقة كلها. فقد تصوروا فيما طوا ظهر القوة العسكرية المصرية فى حرب الستة الأيام فى شهر يونيو ١٩٦٧ وكان غير موشى ديان إذا مصر لن تنهض عسكريا قبل عشرين سنة.

د. حسين مؤنس

فى الساعة الثانية عشرة بعد الظهر تراصت دورياتهم فإذا – حتى فى حالة ما إذا كانت المصريون يضمرون شيئا – فإن كل قواعد العسكرية تقول إن أى هجوم ينتظر له نجاح لا يمكن أن يبدأ بعد الظهر. إنهم الآن يستعدون للغداء فهذا يوم الكيبور. اليوم الكبير. يوم التكفير. وفى يوم التكفير لا تقوم حروب.

ولكن الساعة الواحدة بعد الظهر أتتهم فجاءة العمر.

فى وقت واحد، وبتوقيت تحكم بدأت مدافع المصريين ترسل وابلا من القذائف بطول القناة من السويس إلى سهل الطينة بدلة لم يصدقها الإسرائيليون. كل قذفة تقضى على بطارية مدافع تدعم أو تمزق إربا قاعدة تجمع سيارات أو مركز قيادة. فى دقائق وجد من كان «إيريك رولو» مراسل الفيجارو يقول إنهم أعظم حشود الدنيا. وجدوا أنهم تحت رحمة عسكريين يتوقعونهم تراجعوا. من هول المفاجأة وجد الكثيرون منهم أن أحسن ما يفعلونه هو أن يهربوا.

واستمر القصف الرهيب فى نغمات الساتر الترابى. وقف الإسرائيليون مذهولين. للمرة الأولى فى صراعهم مع العرب عرفت قلوبهم الخوف. أمر لا يصدق: المصريون يتصيدون جنودا على القناة. طائراتهم بدلة الواقع الإسرائيلية وكان. لقد قامت القيامة. والمصريون عابرون قواعد كما كانوا قبل أربعين قرنا. وأمام القواعد – ليس أمام اليهود إلا الهرب. لقد هربوا أمام المصريين أيام الفراعنة ومضاع وكان معهم نبى الله موسى بن عمران عليه السلام. وها هم أولاء اليوم يهربون أمام نفس المصريين ومعهم موسى بن ثابت.

كيف قام المصرى بهذا العمل. فغير الأوضاع فى الشرق الأوسط فى أيام قليلة. وضرب الجبار بين عينيه بالسيف. وقلب ميزان قوى الحرب – استراتيجيا وتكتيكيا – فى العالم كله. ؟

الجواب: لأنه فى هذه الجولة من الحرب مع إسرائيل وجد المصريون قائدا والدا هو الرئيس السادات.

وبكفاية القائد العسكرى الموهوب. وبذكاء السياسى الدارس لحق الواسع الذهن. المشرق بالفطنة والعلم وبعد النظر لحقائق المعركة الطويلة الدائرة على أرض العرب التى نسميها – لا أدرى لماذا – الشرق الأوسط وما هو بأوسط حال. إنما هو مصطلح ابتكره الإسرائيليون وأحلافهم ليزيلوا اسم عالم العرب أو الشرق العربى ويضعوا مكانه اسما يسع لإسرائيل. بهذه الصفات كلها وطبعا كثير. أعد هذا القائد للمعركة ورسم حدودها وقرر مواعيدها.

وبقلب الوالد الرفيق بعث القائد الثقة فى نفوس العاملين معه جميعا من القادة الكبار إلى القابلين فى الصفوف. وعندما استقرت الثقة فى النفوس وانطلقت مشاعر الأبوة من قلب القائد إلى نفس المقاتل تفجرت فى نفوس المصريين المواهب الكبرى الكامنة فى النفوس. واستيقظت فى قلوب المصريين نفس العبقرية التى بنت الأهرام والمعابد والتماثيل والقصور وكل ما يبهر الناس من آلاف السنين. نفس العبقرية التى قادتهم إلى نصر عظيم. والتى صنعت تلك الجوهرة البديعة التى هى حضارة مصر الإسلامية.

لأن المصرى إذا وجد القائد الوالد الموهوب العطوف وجد فى نفس الوقت نفسه. وهذا لا حدود لما يستطيع عمله هذا الشعب العبقرى.

وإذا لم يجد القائد الوالد. ووجد نفسه مطرودا بأس لا يحميه ولا يجيره. لا يجديهم ولا يجيرونه. انطوى على نفسه وكانت ملكاته معه. ودخل فى نوم الشتاء الطويل.

طبع فطره الله عليه. وقالب صبه الله عليه. صبغة الله فى شأنه «ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون».

إنه قبس من روح الأسرة الذى تحدثنا عنه المرة الماضية. والأمر بعد يحتاج إلى مصادر أخرى من التاريخ.

* * *

فى أوائل يوليو ١٩٥٢ كانت آمالنا نحن فى مصر قد هبطت إلى القاع. كانت أواخر أيام بيت محمد على الذى صنع لنا ونا الكثير. ولكنه ضيع ما صنع عندما رفض أن يكون والدا ووليا لأسرة هذا الشعب. لقد أبعدناه ورفعناه من مرتزق أبانى إلى قائد شعب جليل. ولكنه لم يكن على مستوى الأبوة وإن كان على مستوى القيادة فقرر بهذا مصير بيته.

وفى أواخر يوليو ١٩٥٢ كان آخر الفوك من ولده أبعد ما يكون عن روح القيادة وخلال الأبوة.

وكان حزب الوفد الذى قام بدور القائد الوالد منذ أعطاه هذا الشعب توكيلا للدفاع عن حقوقه والحصول على الاستقلال. قد تخلى عن دور القائد الوالد عندما وقع معاهدة ١٩٣٦. وقال لنا لقد أتيتكم بالاستقلال الذى وعدتكم به. وكان يخدع نفسه. فإن الذى أتى به فى معاهدة ١٩٣٦ كان قليلا جدا بالنسبة لما كنا نرجوه.

وما دام الحامى قد كسب القضية – فى زعمه – فقد انتهت وكالته وحلال الميدان من قائد ووالد. فحدث ذلك الشعور الفريع

فى شئون مصر من ١٩٣٦ إلى ١٩٥٢.

وفى الساعة السابعة من صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ صحت مصر على رنين صوت يقول إن جيش مصر قد نهض لقيادة شعب مصر فى طريق الاستقلال الصحيح والنهوض المأمول.

وأحس أهل مصر جميعا خوارة الأنوثة فى صوت ذلك الشاب المصرى الأصيل الذى أعلن نهاية عصر التدهور ، ودعا الشعب إلى النهوض معه لمواصلة الكفاح.

وكانت ثورة يوليو ١٩٥٢ ، فى ثلاثة أيام كان آخر البطالة الجدد أبناء محمد على قد غادر مصر متنازلاً عن حقه فى شرف لم يستحقه قط ، وبمغادرتها أوشك شرفه وجنسه وعاداتها بأهل نحلة الشرف أو الخلال.

وانسحط الشعب كله وأسرع يمد يده إلى القائد الأب الجديد ، ولم يكن أبا واحدا إنما كانوا فئة من شباب مصر الذين عرفوا كيف يلعبون دور القائد الأب الأمين.

وخطوات سريعة كانت كلها تحقيقا لآمال فى صدر هذا الشعب ، امتد الخط الباعث من قلب القيادة إلى قلوب الشعب.

وكانت النهضة التى أصبحت بعد أربع سنوات فحسب - ١٩٥٦ - نهضة وثورة عالمية ، فإن قائد مصر الشاب جمال عبد الناصر والذين معه كانوا يعملون (أشداء على الكفار رحماء بينهم) دخلوا بنصف الإنسانية عصرا جديدا يوم أنهوا قناة السويس وأسقطوا الستار عن الشعر العربى الذى كان يستغل أفريقيا وآسيا وأمريكا الوسطى والجنوبية جميعا.

والقيادة الباسلة التى وقفت أمر قاهر القناة وقفت فى نفس الوقت قرار نهاية الاستعمار ، ففى سنة ١٩٥٢ لم يكن فى أفريقيا كلها إلا بلدان مستقلان : مصر وإثيوبيا وبعد نصف مستقل هو ليبريا.

وبعد سنة ١٩٥٦ بدأت شعوب أفريقية وآسيا كلها تستقل ، لقد سقط الستار على الغرب ... وخرأ كل الظالمين على البصق بين عينيه.

وفى مؤتمر باندونج رأت الدنيا شابا طويلا أجمر نهض من تراب قرية بنى مر مركز أسيوط فى صعيد مصر ، كأنه فرعون شاب عبر عشرات القرون فى طرفة عين وأتى ليفتح فى تاريخ الدنيا عصرا جديدا.

كيف تم ذلك كله ؟

لأن الذين قادوا الثورة الكبرى كانوا قادة شبابا عرفوا كيف يلعبون دور القائد الوالد ، أصبح رئيس مصر رئيس العرب أجمعين.

مرة أخرى ، هذه روح الأسرة التى هى عصب الحياة والقوة فى فطرة مصر ، وقدرتها على الأبناء بكل عجيب إذا وجدت القائد الوالد.

طبع فطره الله عليه ، وقالب صبه الله عليه ، صبغة الله فى شأنه (ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون).

وخطوة أخرى إلى الوراء.

فى ١١ نوفمبر ١٩١٨ انتهت الحرب العالمية الأولى ، سلمت ألمانيا أمام الحلفاء وفرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة ، وعقدت الهدنة وبدأت التمهيدات لعقد مؤتمرات الصلح أو مؤتمر إملاء المنتصر شروطه على المنهزم كما قال أدولف هتلر.

وانتصب لرسم خريطة الذل والعبودية لثلاثة أرباع الدنيا اثنان من شياطين السياسة العالمية : جورج كليمانصو وودرو ولسون ، وواحد كان دوره هو دور السيد فى فرقة الغناء هو فرانسيسكو ساحير يونيني رئيس وزراء ايطاليا ، وواحد بدأت مظاهرات الصلح وهو دكتور ومدرس وواعظ هو وودرو ولسون رئيس الولايات المتحدة ، واتتهت وهو تلميذ بليد.

وأعد سادة الدنيا وأصحاب القول الفصل فى مصير البشر يجادلون والدنيا كلها تنظر.

ولكن شعبا واحدا من شعوب الدنيا المغلوبة إذ ذاك لم ينتظر هو شعب مصر ! انتهت الحرب يوم ١١ نوفمبر وفى صباح ١٣ نوفمبر كان رجال مصر مع السير رجالد وينجيت يطالبون باستقلال بلادهم.

وكان وينجيت يحسب أنه يستطيع بكلمتين صرف أولئك الرجال ... ولكنه وجدهم يطالبون بالاستقلال.

وكان من طرائف ما قال وهو غير مصدق نفسه : إذن فأنتم تطلبون الاستقلال ؟ ! وكان المصريون فى ذلك الحين فى قلق على المصير ، ولكن القلق على المصير كان اخطاء النفسية التى تعود عليها المصريون وربما منذ عهد الطغاة فسير القرية بلاد مصر سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ، وحربت بلاد مصر تحريبا أوقف استمرار الأسرات المصرية.

وحالة القلق على المصير هذه كانت فى تاريخنا فى المرحلة السابقة على مرحلة الانطواء والتحجر ويوم الشداء.

وفجأة سمع المصريون أن ثلاثة من كبار أمريهم وهم سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى اعضاء الجمعية التشريعية قد

أيها المصرى من أنت أنا الذى إذا أعطيتنى قلبك وثقتك وأحترامك رأيت منى عجبًا..

طلبوا من المندوب السامى وممثل بريطانيا أن يرحل عن مصر ويدعها لأهلها.

ووقفت عملية يوم الثناء . فإن الأسرة المصرية شعرت أن لها آباء يفهمون ويتكلمون باسمها.

وعندما سأل السير ونجيت عن الصفة الشرعية التى تخول لكبار الأسرة الثلاثة التحدث باسمها . بدأت حركة إعطاء التوكيلات . وهى من أجمل مشكورات الذهن السياسى المصرى .

وتكون الوفد المصرى .

وبستيقظ شعب مصر كله . ويعود الروح كما قال توفيق الحكيم . وفى ٧ فبراير ١٩١٩ وجدت الأسرة المصرية أباها.

لأن مصر كما قلت لحاج دائما إلى القائد الوالد . والحب والثقة العاطفة هو الحور الذى لابد منه لنهوض المصرى .

كان ذلك اليوم موعد محاضرة ثانية يلقيها السير أرشيبالد ويسفيلد السكرتير بمحكمة الاستئناف الأهلية عن مشروع قانون العقوبات الجديد الذى أعدته لجنة الامتيازات ورئيسها السير ولیام برقيات كبير مستشارى دار الخزانة لتقرير نظام الحكم فى مصر بعد الحرب وأهم ما فيه أن تخول حكومة مصر وزارة مشتركة من المصريين والأجانب لأن مصر فى العصور الأخيرة ضيعة أوروبية يقوم فيها السلطان أو الملك بدور صاحب الأرض المحجور عليه (لأنه سفيه) ويتولى الأمر فى دوله المغرب السامى البريطانى . ويقوم بدور الخولى وناظر الزراعة وبشكتاب الضيعة . وتحت إشرافه تتولى السلطة الوزارة المصرية الأجنبية وتقوم مهمة مراقق الدائرة

ويتكلم القاضى ويسفيلد عن قانون العقوبات الذى يضعه مع لجنته . ويختم خطابه قائلا: إن مصر ستحكم بهذه الطريقة بشريعة معقولة

ويبهض سعد زغلول ليخطب على المحاضرة فسخر من قانون برقيات وكلام ويسفيلد . وقال . ولكنى أقول لحضرته إن هذا التشريع موجود فعلا منذ أمد بعيد

إن أمتنا المصرية ليست من قبيل الأنعام الضيع التى ليست لهم شرائع مقررة . إنما بلد كبير كبلدنا تكون له حياة عريقة فى القوانين والشرائع . فمن الخطأ أن يعمد إلى تغيير كلى فى شرعه بدون أن تدعو الضرورة لذلك . أو تهدى إليه التجربة والاختبار

ويستطرد سعد فى كلامه بمنطق سليم ناقدا وناقضا مشروع السير وكلام برقيات من أساسه . ثم ذكر الخولى على مصر . وختم كلامه بتلك العبارة التى خلدت من تاريخ مصر عصرا وبدأت عصرا . فى سنة ١٩١٤ أعلنت انجلترا حمايتها على مصر من غلاء نفسها . بدون أن تطلبها أو تطلبها الأمة المصرية . فهى حماية باطلة لا وجود لها قانونا . بل هى ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بنهايتها . ولا يمكن أن تبقى بعد الحرب دقيقة واحدة .

وطارت العبارة الخارقة من أفق الوادى إلى بقعاء . وتلاحقت الذين لا يمكنون أخذ فهومها بتفهيم فى عقل .

وفيهما الميجر جنرال تشارلس واطسون الذى خلف السير رجنالد وينجيت فى غضب . وفيهما صاحب العظمة السلطان أحمد فؤاد فى رغيب .

لقد وجدت مصر قائدها وأباها . وما دامت مصر قد وجدت القائد الوالد فلا حد لما تستطيعه . .

وقامت ثورة ١٩١٩ . والتف شعب مصر كله بذلك الوالد الوقور والقائد الباسل ذى الوجه الوسيم والشعر الأبيض والغرة الجليلة . إنه فلاح من طينة مصر فهو ابن الشيخ ابراهيم زغلول . وهو أزهرى والأزهريون كانوا حتى ذلك الحين آباء الأسرة المصرية . وهو عصامى بدأ من أول السلم . وانتهى إلى الوزارة . والمصرى يحب الرجل ذا المركز الكبير . وهو خطيب بليغ . والبلاغة عند العرب جميعا شارة مجد وسؤدد . أى أن سعدا التقى مع كل طبقات أهل مصر فى ذلك اليوم . والكلمة التى بلغوها سعد تصل إلى قلب كل مصرى عن الطريق الذى يفهمه . الشاب المتعلم فيهما يعقل الشاب المتعلم . والفلاح الأمى فيهما بقلبه المرهف . والمصرى المتعلم العادى فى ذلك الحين وهو الأزهرى فيهما يحفظها كما يحفظ المتون .

من هنا كانت ثورة سنة ١٩١٩ ثورة شاملة وصلت إلى قلب كل مصرى وحافظته بلغته . مثلها فى ذلك مثل ثورة التصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧٠ التى قدمت لكل مصرى ما كان يتمنى الحرية لمن صيقوا عليه وحرموه الحرية . والحق لمن خصوه حقه وحرموه ماله والكرامة لمن أذلوه وأهانوه . والعمل الحر لمن حرموا عليه العمل الحر . والعطاء لمن فى حاجة إلى الرغيف . وفوق ذلك كله الأمان . وكنا جميعا قد افتقدناه .

كانت ثورة سنة ١٩١٩ شاملة لأن القائد الوالد كان كل شىء بالنسبة لكل مصرى

هنا أيضا نجد السر فى نهوض المصرى وتفجر نواحى الإبداع فيه يرجع إلى أنه وجد القائد الوالد الذى بادله الحب والثقة والاحترام

وعندما نجد الأسرة المصرية الأب القائد أو القائد الأب ترى منا العجب .

وأعود بك إلى الوراء مرحلة أخرى لأريك قائدا قديرا يولى أمر هذا الشعب . ولكنه عجز أو رفض أن يكون أبا . فأنكرته الأسرة المصرية وانفصلت عنه .

هذا الرجل هو محمد على .

لاشك أن هذا الرجل موهوب . من لاجرم دخان ورجل إلى أن يكون من كبريات شخصيات القرن التاسع عشر .

هذا الرجل أنقذ فرقة صغيرة من الألبانيين فى فترة يأس وفوضى . فإن مصر بعد معاهدة إميان سنة ١٨٠٢ كانت مهددة بالعودة إلى حكم الأمراء .

والأمراء المماليك الذين بهروا العالم عندما ظهروا على مسرح التاريخ فى القرن الرابع عشر الميلادى . وأنقذوا عالم الإسلام من أخطار كبيرة فى القرن السادس عشر الميلادى . هؤلاء الأمراء هبطت عليهم بعد سليمان القانونى حياة شاملة النعيم وأنعمت عليهم وأصبحوا فى القرن التاسع عشر بكية على أنفسهم أولا وعلينا ثانيا

وكما بعد ثلاثة قرون من الحكم قد وحدنا – والأمراء معنا – فى يوم الثناء . ولكننا صحونا على الفرقعة الخائفة التى أحدثتها الحملة الفرنسية على مصر . صحونا وقاست قوية بالخوف والقلق .

ووسط هذه الخوف تراءت لنا على سطح الماء قدما . أحدهما تحمل على . وتعانقنا بها . وارتحنا لأن هذا الرجل أراد أن يكون منا . وتألقت نفوسنا إلى أن يتحول هذا الرجل إلى رب لأسرتنا . فاخترناه أبا . وقلنا : نريد فلانا يتصلح فى النيابة

وأثبت الرجل كفاية نادرة . تواصه وتواصلنا معه . وفى يوم من الأيام بعد انتحار الجيش التركى أدام الفلاحين الذين أصبحوا عمارين عظماء لأنهم وجدوا أبا . فى ذات يوم عند قبر يوسف صديق أباء الفلاحين الجيش التركى وفتح الطريق إلى الأستانة ووقع الناس أن يكون خليفة الإسلام الجديد من صنع مصر وأنه سيدخل الأستانة بقوة الجندى المصرى

وهنا عجز الرجل عن أن يختار الخطوة الكبرى التى كانت ستجعله حقا من صناع القرن التاسع عشر .

عجز عن أن يثبت للمصريين أنه والد . ويريهم أنه رب الأسرة المشهود . وكان هذا فيروزا له أو جهلا أو ربما غفلة . فقد كان الرجل يظن عندما يلقه أن جنود مصر الذين كونهم ورباق قديم الكونوليل سيف أو سليمان باشا . يزلون الجزائر لجيوش الأمراء . كان يشعر أنه هو الذى يتوم . وهذا الرجل الموهوب فى كل شىء إلا فى الجانب الانسانى تراجع من الشام وهو منتصر . تراجع أمام ضابط بريطانى صغير يسمى الكولونيل نابير . ولم أنه ثبت أمامه لأنه الجنود المصريون أكلا .

هنا فقد محمد على فرصته الكبرى . فقد سيب أمثال المصريين لأنه افتقى القوة من الأمراء ثم من الأوروبيين .

وكان ذلك فراق ما بينا وبينه

وكان من الممكن أن يصلح الحال لو عاش ابنه إبراهيم . ولكن ابنه إبراهيم مات وهو أمرا عاص الأول وراضع نفسه تحت حماية أوروبا

وكان ذلك حكما بالموت على أسرة محمد على . ولكن مصر لم تعد إلى الحجر واليوم مرة أخرى . سترا لى بيقضا طوال القرن التاسع عشر . وفى القرن العشرين حطاها ثورة عظيمة وجدنا آباء من أسرتنا ودفاتنا : عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد ثم سعد زغلول

ثم جمال عبد الناصر ثم أنور السادات

كلهم من أسرتنا . كلهم شعرنا أنهم قادة آباء حقيقيون من قرابا

والمصرى إذا وجد القائد الأب رأيت منه العجب

صيغة الله فى خلقه وهى أحسن من الله صيغة . ونحن له عابدون)